العلم بالله

بقلم

دكتور/ هشام عبد الجواد الزهيري



معرفة الله
أو
العلم بالله

كتبه

دكتور / هشام عبد الجواد الزهيري



الدار العالمية للنشر والتوزيع

معرفة الله



حقوق الطبع محفوظة

الدار العالمية للنشر والتوزيع

الطبعة الثانية

١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

رقم الإيداع: ٢١٦٢/ ٢٠١٤م

الترقيم الدولي: I.S.B.N. 978-977-744-018-9



الدار العالمية للنشر والتوزيع

ص.ب: ٦١٠ ر.ب: ٢١١١١-٣١ ش الصالحي-محطة مصر - الإسكندرية

محمول: ٠١٠٠٥٤٠٦٤٠٣ - ٠٢/ ت: ٠٣٤٩٧٠٣٧٠ - ٢٠٣ / تلفاكس: ٥ ٣٩٠٧٣٠ ٢٠٣

E.mail: alamia_misr@hotmail.com

المقدمة

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما يحب ربنا ويرضى، **أمّا بعد:**

فإنّ معرفة الله أو العلم بالله هو أعلى منازل الإحسان؛ ولذا كان بغية عباد الله الصالحين. قال ﷺ: **«والله لأنا أعلمكم بالله وأشدّكم له خشية»** (رواه مسلم). والوصول إلى هذه المنزلة لا يكون إلّا بإعانة الله وتوفيقه وحده لا شريك له. وقد بيّن الرسول ﷺ طريقة الوصول إلى هذه المنزلة في سنته الشريفة في غير ما حديث، ولكن عَلِم ذلك مَنْ عَلِمه وجهله مَنْ جهله. فهذه رسالة أوضح فيها بعض ما اشتملت عليه السُّنّة المطهرة - على صاحبها أزكى وأتم الصلاة والتسليم - من بصائر للإيمان عسى أن تكون سببًا للوصول إلى معرفة الله والعلم به، والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلّا بالله العليّ العظيم.

وكتبه

دكتور/ هشام عبد الجواد الزهيري

• سئل رسول الله ﷺ عن رجلين أحدهما عابد والآخر عالم. فقال: «**فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم**» ثمّ قال: «**إنّ الله وملائكته وأهل السماوات والأرضين حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلُّون على معلِّم الناس الخير**» (رواه الترمذي وصححه الألباني).

• وقال أيضًا ﷺ: «**وإنّ الملائكة لتضع أجنحتها رضىً لطالب العلم، وإنّ العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب**» (رواه الترمذي وصححه الألباني).

قد يشكل قوله ﷺ: «**فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم**»؛ لأننا قد رأينا عُبّادًا أفضل من علماء؛ فمثلًا أُويس القرني رَحِمَهُ ٱللَّهُ روى مسلم أنّ النبي ﷺ قال: «**أفضل التابعين رجلٌ يقال له أويس القرني**» مع أنّ سعيد بن المسيب أعلم منه بلا شك وهو من التابعين مثله؟! والجواب عن هذا الإشكال بعدة أجوبة؛ منها:

ـ أن يقال: هذا حكمٌ أغلبي فجاز إطلاقه على العموم لذلك، ففي أكثر الأحوال يكون العالم أفضل من العابد الذي في نفس درجته، فالعالم المجتهد يكون في أكثر الأحوال أفضل من العابد المجتهد، وطالب العلم يكون في الأغلب أفضل من المبتدئ في العبادة، ولا يدخل في ذلك المقارنة بين العابد البارز في العبادة المجتهد فيها كالفضيل بن عياض مثلًا مع آحاد المبتدئين في العلم.

ـ ومن الأجوبة كذلك أن يقال: المراد من الحديث هو بيان أنّ الوقت الذي يشغله العالم وطالب العلم في بحث المسائل ومذاكرتها أفضل عند الله وأثوب من شغل العابد لنفس الوقت في العبادة. كما أنّ العابد قد يشغل جُلّ وقته في العبادة ويكون الطالب للعلم لا يكاد يشتغل بالعلم إلّا الوقت اليسير، ومع ذلك تكون رتبة العابد عند الله أقل من رتبة العالم.

ـ ومن الأجوبة كذلك أن يقال: المراد هو بيان عظيم أثر العلم على القلب وأنّ اليسير من شغل الوقت به أعظم أثرًا

في زيادة الإيمان من كثيرٍ من العبادة ولكن لا يعني ذلك أفضلية العالم على العابد مطلقًا، كمثل سلحفاة تسابق نمرًا، فالنمر بقفزةٍ واحدةٍ يقطع من المسافات أضعاف ما تقطعه السلحفاة في ساعات ولكن ربما كانت السلحفاة لا تكاد تنقطع عن الجري بينما النمر يقفز واحدةً ويترك الجري بعدها أيامًا فتسبقه السلحفاة، فيا حسرةً على طالب علمٍ أو عالمٍ لا يدري ما بإمكانه أن يحصِّله بسبب العلم من الخير العظيم والفضل العميم، وأنّه لو بذل وأخلص وصدق لوصل إلى ربه في وقت يسير، ولكن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

ـ واعلم أنّ تأثر القلب بالعلم إنما يكون شيئًا فشيئًا طالما وُجد الصدق والتقوى. وربما كان الأثر بطيئًا ولكنه على كل حالٍ يكون أعمق وأنفع وأدوم من أثر العبادة طالما تساوى العابد والعالم في الصدق والتقوى. وأمّا إذا كان العابد صادقًا تقيًّا وكان طالب العلم أو العالم خاليًا منهما

فلا مقارنة بينهما أصلًا؛ سئل رسولُ الله ﷺ أي العمل أفضل؟ فقال: «**إيمانٌ بالله ورسوله. قيل: ثمّ أيّ؟ قال: الجهاد في سبيل الله. قيل: ثمّ أيّ؟ قال: حجة مبرورة**» (رواه الترمذي وصححه الألباني). والجهاد والحج من الإيمان بلا شك، فالمقصود من قوله «**إيمان بالله ورسوله**» إذًا هو أعمال القلوب والتي بها يتفاضل العباد في الحقيقة عند الله. والتي بها أيضًا كان أُويس أفضل من سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير ومجاهد وعطاء وعكرمة والقاسم بن محمد وعمر بن عبد العزيز بل ومن جميع التابعين!! ولذا قال كثيرٌ من السلف منهم الحسن وغيره: ما سبقهم أبو بكرٍ بكثير صيام ولا صلاة ولكن بشيء وقر في القلب وصدَّقه العمل.

ـ وقوله ﷺ في هذا الحديث: «**إنّ الله وملائكته وأهل السماوات والأرضين حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلّون على معلِّم الناس الخير**».

فيه بيان عظيم أثر العلم وكيف أنّ الخير بسببه يعمّ الكائنات الحية ويصلها ولو كانت في جحرها كالنمل أو في أعماق البحار كالحيتان!!

- وقوله في الحديث الثاني: «لَيَستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء».

فيه بيان حاجة العالم للاستغفار الكثير وفي ذلك تنبيه على عدة معانٍ:

- منها: أنّ ما يُشغل به العالم بسبب علمه عن بعض العمل يعوِّضه الله له باستغفار الكائنات له.

- ومنها: أنّ حجة العلم عظيمة ولا يكاد يقدر أحدٌ على توفية حق العلم، وكلما كثر علم العبد زادت حاجته للاستغفار.

- ومنها: أنّ فضل الله على مَنْ رزقه محبة العلم وطلبه عظيمة لا يكاد المرء يقدر أن يوفي الله شكرها فاحتاج العالم إلى مزيدٍ من الاستغفار لتقصيره في شكرها.

ـ ومنها: أنّ العبد كلما عظمت منزلته زادت حاجته إلى الاستغفار والتوبة؛ ولذا قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما رأيتُ أحدًا أكثر استغفارًا من رسول الله ﷺ.

ـ ومنها: أنّ الاستغفار من أعظم الأعمال ومن أعظم العبادات، وفي الحديث: **«طُوبى لمن وجد في صحيفته استغفارًا كثيرًا»**.

ـ وقوله **«معلّم الناس»** فيه أنّ كمال العلم بتعليمه للناس بعد العمل به. قال الفضيل بن عياض: عالمٌ عاملٌ معلّم يُدْعى كبيرًا في ملكوت السماوات. (رواه الترمذي وصححه الألباني).

ـ واعلم أنّ الحديث قد ذكر فضل العالم على العابد ولم يذكر طالب العلم، وذلك لأنّ المرء بمداومته على طلب العلم وتحصيله والانكباب عليه حتى يصير عالـمًا، فإنه يجد سكينةً في قلبه وإخباتًا وتواضعًا ونورًا وإيمانًا لا يكاد يوجد مع العبادة. فحدِّث ـ كما شئت ـ عن خشوعه في صلاته، وإخباته في ذكره، وتضرعه في دعائه، وبكائه في قراءته،

وطمأنينته في ركوعه وسجوده، وسعادته بالإسلام والإيمان، وتوفيقه وسداده في وعظه ونصحه. ولا يعني ذلك حرمان طالب العلم من بركة وثواب العلم ولكنّ أثر العلم على القلب يزداد مع زيادة العلم.

• وقال حنظلة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لرسول الله ﷺ: نافق حنظلة يا رسول الله. قال: «**وما ذاك؟**» فقال: نكون عندك تذكِّرنا بالنار والجنّة حتى كأنّا رأي عين، فإذا رجعنا عافسنا الأزواج والضيعة ونسينا كثيرًا، قال: فقال رسول الله ﷺ: «**لو تدومون على الحال التي تقومون بها من عندي لصافحتكم الملائكة في مجالسكم وفي طرقكم وعلى فرشكم، ولكن يا حنظلة ساعةٌ وساعة**» (رواه الترمذي وصححه الألباني) وفي رواية عند الترمذي أيضًا وصححها الألباني: «**لو أنكم تكونون كما تكونون عندي لأظلتكم الملائكة بأجنحتها**».

ـ قوله ﷺ: «**لو تدومون على الحال التي تقومون ... إلخ**» يحتمل أن يكون حثًّا على السعي للوصول إلى ذلك، ويحتمل أن

يكون بيانًا للعجز البشري عن الوصول إلى هذا بسبب الطبيعة البشرية، ويشهد للثاني رواية الترمذي التي صححها الألباني **«لو أنكم تكونون إذا خرجتم من عندي كنتم على حالكم ذلك لزارتكم الملائكة في بيوتكم، ولو لم تذنبوا لجاء اللهُ بخلقٍ جديد كي يذنبوا فيغفر لهم»**، فدلّ على أنّ المراد: أنكم بطبيعتكم البشرية لابد وأن تصيبكم الغفلة كما أنه لابد وأن تذنبوا، ولكن عليكم بالاستغفار والتوبة من تقصيركم هذا.

فإن قال قائل: فما فائدة مجالس التذكير بالجنة والنار والآخرة إذا كان المرء لابد وأن ينسى؟ قلتُ: لهذه المجالس عدة فوائد:

ـ منها: أنّ حنظلة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال «نسينا كثيرًا»، فدلّ على وجود أثر إيماني باقٍ حتى مع مخالطة الأزواج والأولاد، وهذا خيرٌ ممّا لا شيء.

ـ ومنها: أنّ مداومة العبد على مجالس العلم والإيمان من شأنها أن تقلّل أثر مخالطة الأزواج والأولاد على القلب. ولا

يزال هذا الأثر يضعف شيئًا فشيئًا حتى يكون أثرًا ضعيفًا ممّا لابد منه بسبب الجِبِلّة البشرية.

ـ ومنها: أنّ هذه المجالس هي مرآةٌ يرى فيها العبد قدر إيمانه، فهل هو كما وصف الصحابة «كأنّا رأي عين»، وهذا دليلٌ على عظيم إيمانه حتى صار كأنه يرى الجنة والنار وينظر إليهما أم هو قريبٌ من ذلك الحال أم أنه قاسي القلب غافل النفس؟!!

ـ ومنها: أنّ مجالس العلم والإيمان هذه تقي العبد شرور مخالطة الناس وذلك لما يتعلمه من أمورٍ تحفظ عليه دينه كقوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحب لنفسه» (صححه الألباني) بل وأمورٍ تحفظ عليه أمر دنياه ولولاها لعاش مهمومًا نكدًا منغَّص العيش كقوله ﷺ: «واعلم أنّ الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك لم ينفعوك إلّا بشيءٍ قد كتبه اللهُ لك ولو اجتمعت على أن يضروك لم يضروك إلّا بشيءٍ قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفَّت الصحف»

(صححه الألباني)؛ ولذا ـ والله أعلم ـ أورد الإمام الترمذي هذين الحديثين بعد حديث حنظلة الذي ذكرناه آنفًا.

● وقال ﷺ: «ما منكم من نفسٍ منفوسة إلّا وقد كتب الله تعالى مكانها من الجنّة والنار، وإلّا وقد كتبت شقية أو سعيدة، فقال رجل: يا رسول الله، أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل؛ من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة، فقال رسول الله ﷺ: اعملوا فكل ميسَّرٌ: أمّا أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة» (رواه مسلم)، وفي رواية للبخاري: «ما منكم من أحد إلّا قد كتب مقعده من النار أو من الجنة، فقال رجل: ألا نَتَّكل يا رسول الله؟ قال: لا، اعملوا فكل ميسَّرٌ ثمّ قرأ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۞ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۞ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۞ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ (الليل: ٥-١٠).

- قولهم «أفلا نمكث على كتابنا يا رسول الله وندع العمل؟» لا يتصور أنّ الصحابة شكوا في لزوم أداء الطاعات وترك المعاصي في الجملة وإلّا لما كان للتكليف فائدة، وإنّما سألوا عن لزوم مجاهدة النفس في ما يشق عليها فعله من الطاعات وتركه من المعاصي؛ سألوا هل تلزمهم المجاهدة والمكابدة حتى تستقيم نفوسهم على الطاعات أم يكتفون بالمحاولة ودعوة النفس، فإن أجابت فعلوا، وإن أبت علموا أنّ ذلك ممّا كتب الله عليهم عدم التوفيق له فلا يتعبوا أنفسهم فيه؟ ولعلّ ما سأل عنه الصحابة هو ما حاولوا فيه وأكثروا من المحاولة ولم يجدوا التوفيق فيه. وهذا يختلف من شخصٍ لآخر، فأعلمهم الرسول ﷺ بلزوم السعي والعمل والمجاهدة؛ فإنّ كلَّ واحدٍ ميسَّر لما خلق له. وهذا يفيد أنّ المرء إذا وجد نفسه تسعى في طريق الخير وتحاول الاستزادة من الطاعات، فليستبشر خيرًا وليعلم أنّ الله قد يسّره لطريق الخير، وليسعَ حينئذٍ في أن يبذل قصارى

جهده في التخلص من عيوبه وتقصيره فإنّ الخير ميسَّرٌ له. وأمّا إذا وجد نفسه على العكس من ذلك، فعليه أن يسعى بكل ممكن للتخلص من المعاصي؛ فإنّه لا يعلم هل هو ممّن يُسِّر لطريق الخير أم لطريق الشر، وإذا كان ممّن يُسِّر لطريق الخير فسوف يتخلص من عيوبه تلك ولو بعد حين. فإن قال قائل: فكيف بمن لا يجد إرادةً للسعي والمجاهدة أصلًا هل ييأس من نفسه؟ قلتُ: لا. بل عليه بالدعاء والإلحاح على الله بهدايته ففي الحديث: **«لا يردُّ القدر إلّا الدعاء»** [الصحيحة: ١٥٤]، فإن كان لا يجد في نفسه إرادةً للدعاء أصلًا، فلا ييأس أيضًا بل عليه أن يقرأ آيات وأحاديث ذكر الجنة وذكر النار، وكذا أحاديث فضائل الأعمال وأحاديث الترهيب من المعاصي، فإن أجابت النفس على ذلك وتولدت لديها إرادة الخير فسوف تلحّ على الله بالدعاء للتوفيق إلى الخير، فإن لم تجب إلى ذلك فلا سبيل لها أعلمه إلّا أن يشاء الله، وكم من عبدٍ قذف الله في قلبه الخير رحمةً

منه وفضلًا!! وليعلم العبد أنّ النفس ـ ولو كانت غافلة جاهلةً في أكثر أحوالها ـ ربما أتتها رياح الخير فينبغي استغلال ذلك قبل فوات الأوان وانقطاع الفرصة خاصةً في رمضان وعند حضور الجمع ومجالس الذكر والوعظ.

• وقال ﷺ: «فو الذي لا إله غيره إنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنّة حتى ما يكون بينه وبينها إلّا ذراع ثمّ يسبق عليه الكتاب، فيختم له بعمل أهل النار فيدخلها، وإنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلّا ذراع ثمّ يسبق عليه الكتاب، فيختم له بعمل أهل الجنة فيدخلها» (متفقٌ عليه)، وفي رواية متفقٍ عليها أيضًا: «إنّ الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإنّ الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة».

ـ قوله ﷺ: «يعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس» معناه على الراجح أنه يعمل عملًا صالحًا لا رياء فيه ولا

سمعة ولا عجب وإلّا فالرياء والسمعة والعجب ليست من أعمال أهل الجنة، كما أنّ قوله «ليس بينه وبينها إلّا ذراع» يدل على أنّه شديد القرب من الجنّة، والمرائي والمعجب بعمله ليس شديد القرب من الجنة. فإن قيل: فما سبب سوء خاتمته إذًا؟ قلتُ: سوءُ الخاتمة له أسباب عديدة:

- فمنها: إدمان المعاصي والمداومة عليها.

- ومنها: الرياء في العمل الصالح وطلب السمعة فيه وحبُّ الشهرة.

- ومنها: وهو أخطرها، وهو محل الحديث: آفات في داخل النفس وباطنها لا يعلمها العبد من نفسه ولكنّ الله الذي خلق النفوس والقلوب يعلمها. وهذا ما قاله بعض السلف في معنى قوله عز وجل: ﴿ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ (طه: ٧)، فالسر هو ما يعلمه العبدُ من نفسه من آفاتٍ وعيوبٍ ولا يعلمه الخلق، وأمّا ما هو أخفى فهو ما في باطن العبد من آفاتٍ وعيوبٍ ممّا لا يعلمه إلّا الله. ومن رحمة الله وفضله أنّه لا يعامل العباد

بمقتضى هذا بل يعفو ويصفح إلّا في حالاتٍ نادرة يعاملهم سبحانه بعدله فيقدِّر عليهم سوء الخاتمة بسبب هذه البواطن السيئة ليكونوا عبرةً وعظةً للناس. فواغوثاه بالله من ذلك!!
وإذا كانت الصدقات تقي مصارع السوء كما في الحديث، فمن أعظم وأولى مصارع السوء أن تسوء خاتمة العبد.

ـ وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾ (فاطر: ٢٩)، وأيُّ بوارٍ أعظم من سوء الخاتمة؟! فدلّ على عظيم أثر إقامة الصلاة وهو أداؤها بإتقان وخشوع وكذا الصدقات وكذا تلاوة القرءان، وأنّ هذه الثلاثة من أعظم أسباب حسن الخاتمة.

ـ وقال تعالى أيضًا: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (الأنفال: ٣٣)، فجعل الاستغفار مانعًا من عذاب الله، ومن ساءت خاتمته كان من أهل العذاب، والعياذ بالله!!

ـ وقال ﷺ: **«الحج المبرور ليس له جزاءٌ إلّا الجنة»**، فدلّ على عظيم أثر الحج في حسن الخاتمة.

إخواني ... في الحديث الصحيح الذي رواه الترمذي: **«إنّ الله خلق الخلق في ظلمة وألقى عليهم من نوره، فمن أصابه نوره يومئذٍ اهتدى ومَنْ أخطأه ضلّ»**، وهذه الإصابة عن علمٍ بمن يستحق الهداية. ومعنى مَنْ أخطأه أي: لم يصبه عن علمٍ أيضًا بمن يستحق الضلالة. فياليت شعري من منّا أصابه النّور يومئذٍ ومن أخطأه!! القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف شاء!!

«... لا تعجبوا بعملِ عاملٍ حتى تروا بِمَ يُختم له» (رواه الترمذي وحسنه الألباني) ... كان أكثر دعاء النبي ﷺ: **«يا مقلّب القلوب ثبت قلبي على دينك»** (رواه مسلم) ... فعليكم بأعمال النجاة ..... **«ما عمل آدمي عملًا أنجى له من عذاب الله من ذكر الله عز وجل»** (رواه مسلم). وسئل رسول الله ﷺ ما النجاة؟ فقال: **«أمسك عليك لسانك وابكِ على خطيئتك**

وليسعك بيتك» [الصحيحة: ٨٨٨]. وسئل أيضًا عن النجاة فقال: «كتاب الله» [أورده الألباني في السلسلة الصحيحة]. وسئل عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ فقال: «تقوى الله وحسن الخُلُق» (رواه الترمذي وصححه الألباني). وقال ﷺ: «مَنْ سلك طريقًا يلتمس به علمًا سهَّل اللهُ له به طريقًا إلى الجنة» (رواه الترمذي وصححه الألباني).

ـ وفي فهم العبد لحقيقة القضاء والقدر وعلمه بأنّ الأمر كلَّه بيد الله مدعاةٌ له للإكثار من الدعاء والإلحاح فيه؛ إذ لا سبيل في الحقيقة لتحصيل الطاعات والتخلص من العيوب والنقائص والآفات القلبية إلّا بالدعاء؛ ولذا قال ﷺ: «الدعاء هو العبادة» (رواه الترمذي وصححه الألباني)؛ وذلك لأنّ الدعاء من أعظم العبادات فضلًا وثوابًا كما أنه لا سبيل للمداومة على العبادات إلّا بالاستعانة بالله ودعائه، وقد أوصى رسول الله ﷺ معاذًا فقال له: «لا تدع أن تقول دُبُرَ كل صلاةٍ: اللّهمّ أعنّي على ذِكرك وشُكرك وحُسن عبادتك» (رواه الترمذي وصححه الألباني).

وأمر اللهُ النبي ﷺ أن يقول دبر كل صلاة: «اللّهمّ إني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين، وأن تغفر لي، وأن ترحمني وإذا أردت فتنة قومٍ فاقبضني إليك غير مفتون» (رواه الترمذي وصححه الألباني).

ـ وقد أدرك الخليل إبراهيم هذه الحقيقة كما أدركها نبينا صلى الله عليهما وسلم فقال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ (إبراهيم: ٤٠)، فقال ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى﴾ وكان النبي ﷺ يقول في دعائه: «رب اجعلني لك ذكّارًا لك شكّارًا لك مِطواعًا لك رهّابًا إليك أواهًا منيبًا» (رواه الترمذي وصححه الألباني). وكان النبي ﷺ وأصحابه يقولون: «اللّهمّ لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلّينا» (رواه الترمذي وصححه الألباني)، ودعا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ (البقرة: ١٢٨).

ـ وإذا فهم العبدُ ذلك وأدركه لم يكد يداخل قلبه عجبٌ بطاعة ولا فخرٌ بخيرٍ قام به لعلمه أنّ أفعاله كلها بالله

وبفضله وبرحمته لا بجهده هو قال تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (يونس: ٥٨)، وقال ﷺ: **«اللَّهمّ لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجدّ منك الجد»** (رواه الترمذي وصححه الألباني).

• قال رسول الله ﷺ: **«الكيِّس مَنْ دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنَّى على الله»** (رواه الترمذي وحسنه، وضعفه الألباني إلّا أنّ ضعفه يسير ـ إن شاء الله ـ حتى أنّ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان يحسنه أولًا ثمّ مال إلى تضعيفه).

ـ والكيِّس هو العاقل الفَطِن.

ـ ودان نفسه أي حاسبها. وعبَّر عن المحاسبة بذلك ليدلّ على أنّ المحاسبة الصحيحة هي التي تخرج منها النفس مَدينةً. فمن حاسب نفسه ووجد نفسه قد أدت ما عليها فليس بكيِّس، ولكنّ الكيّس من حاسب نفسه فوجدها مدينةً محقوقةً مقصرةً في طاعة الله مفرِّطةً في أداء ما يلزمها، فيدفعه ذلك إلى العمل لما بعد الموت من السؤال والحساب،

ثمّ إمّا إلى جنّة وإمّا إلى نار. وأمّا العاجز فهو بخلاف ذلك؛ يتبع هوى نفسه وشهواته ثم يرجو المغفرة بغير عملٍ ويزعم أنه يحسن الظنّ بالله، ولو أحسن الظنّ لأحسن العمل!!

ـ والعجز في أصله هو عدم وجود الإرادة للخير وهو أشد الكسل وأسوأه، فالكسلان يجد إرادةً للخير ولكنها ضعيفة لا تقوى على دفعه للعمل، وأمّا العجز فهو انعدام الإرادة بالكلية. وقد استعاذ النبي ﷺ منهما في غير ما حديث فقال: «**وأعوذ بك من العجز والكسل**» (رواه الترمذي وصححه الألباني). وذكر العجز أولًا لأنه أشدّ سوءًا، وذكر الكسل بعده لأنّ الكسل هو سبب العجز؛ إذ لا يزال العبدُ متكاسلًا عن الخير حتى تنعدم إرادته للخير بالكلية ويصير عاجزًا. وذكر رسول الله ﷺ في الحديث الذي بين أيدينا نتيجة العجز القبيحة وهي اتباع النفس لهواها وعدم انبعاثها إلى أيّ خير إلّا إذا سهل عليها وكان موافقًا لهواها ثمّ تتمنّى على الله الأماني. وقد هدم رسول الله ﷺ هذا المبدأ من

أول بيعةٍ بايع عليها أصحابه؛ **إذ بايعهم على الطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره.**

● قال ﷺ: **«إنّ لله في أيام الدهر نفحات فتعرضوا لها فلعلّ أحدكم تصيبه نفحة فلا يشقى بعدها أبدًا»** [السلسلة الصحيحة: ١٨٩٠].

ـ وفيه بيان وجود أيام ومواسم فاضلة تسهل فيها الطاعات على النفوس ويزداد فيها ثواب الطاعات. والسعي والاجتهاد فيها ربما يكون سببًا لصلاح قلب العبد على الدوام فلا يشقى بعد ذلك أبدًا. ومن أعظم هذه المواسم شهر رمضان وكذا شهر ذي الحجة وشهر المحرم وشهر شعبان وقوله ﷺ: **«فلا يشقى بعدها أبدًا»** يدل على أنّ حسن استغلال هذه المواسم بل أحدها ـ أحيانًا ـ ربما يكون سببًا لصلاح القلب على الدوام، وقد أشار النبي ﷺ إلى ذلك بقوله: **«إنّ لله عتقاء في كل يومٍ وليلة في رمضان، لكل عبدٍ منهم دعوةٌ مستجابة»** [صحيح الجامع: ١٦٩]، والعتق من

النار يقتضي صلاح القلب. وقوله ﷺ: «لكل عبد منهم دعوة مستجابة» يدل على وجود أسباب الصلاح ودفع العيوب والآفات الموجودة في القلوب والنفوس. وأمّا عن شهر ذي الحجة ففي الحديث: «ما من أيامٍ العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه العشر - يعني العشر الأوائل من ذي الحجة - فأكثروا فيهنّ من التكبير والتحميد والتهليل» وعن شهر محرم «أفضل الصيام بعد رمضان صوم شهر الله المحرم» (رواه مسلم)، وعن شهر شعبان «ذاك شهرٌ بين رجب ورمضان تغفل عنه الناس تُرفع فيه الأعمال إلى الله وأحب أن يُرفع عملي وأنا صائم» (رواه مسلم).

- ومن عظيم فضل الله كثرة هذه المواسم حتى إذا لم يستطع العبدُ الاجتهادَ في موسمٍ بكسلٍ أو غفلةٍ أو عذرٍ استطاع أن يجتهد في آخر. ولعظيم فضل موسم رمضان وعظيم أثره في تغيير حياة العبد بالكلية سبقه موسم شعبان ليكون توطئةً وتمهيدًا للنفس وتدريبًا لها على الاجتهاد في

العبادة؛ ولذا كان السلف يكثرون في شعبان من الصيام وقراءة القرءان استعدادًا لرمضان كما نقل ابن رجب عن السلف أنّهم كانوا يقولون: شهر شعبان شهر القرءان. ومن العجيب كذلك أن شرع الله موسمًا في آخر العام وجعل فيه يوم مغفرة وهو شهر ذي الحجة وفيه صيام يوم عرفة وهو يكفِّر سنتين كما روى مسلمٌ في صحيحه وجعل موسمًا آخر يليه في أول العام وجعل فيه كذلك يوم مغفرة وهو موسم شهر المحرم وفيه صيام يوم عاشوراء وهو يكفِّر ذنوب سنة كما في الحديث الذي عند مسلم أيضًا في صحيحه. وفي هذا إشارة إلى مشروعية التوبة في آخر العام وفي أوله وذلك يقتضي مراجعة النفس ومحاسبتها حتى تقرّ بذنوبها فتتوب وتصدق التوبة. وفي جعل جزاء صيام هذين اليومين سببًا لمغفرة الذنوب تنبيهٌ على عظيم أثر الصيام في تكفير الخطايا؛ ولذا قال ﷺ: «**من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدّم من ذنبه**». ويلاحظ كذلك أنّ كل المواسم تشرع فيها

عبادة الصيام فدلّ على عظيم أثر الصيام في تربية النفس وتقويمها وتهذيبها وصلاحها؛ ولذا قال النبي ﷺ لمن سأله عن عملٍ يدخله الجنة فقال: **«عليك بالصوم؛ فإنه لا عدل له»** (رواه مسلم).

- واعلم أنّ من أعظم فوائد مواسم الخير هذه سهولة الطاعات على النفس وقوة العزائم والإرادات عليها، وهذه فائدة عظيمة ينبغي استغلالها. فالنفوس كسولة ضعيفة الإرادة - في أغلب أحيانها - إلّا ما شاء الله، فهي سريعة الملل وكثيرة النفور عن الطاعات وإن استجابت لم تكد تحتمل الإطالة فيها. فمن رحمة الله بعباده أنه ييسر للنفوس في هذه المواسم الطاعات ويقوِّي عزائمها، فمن استغل ذلك تعوّدت نفسه على الطاعات، فإذا انقضت المواسم كانت هذه الطاعات قد صارت معتادةً للنفس. ومن العجيب أنه لا يقل موسمٌ عن عشرة أيام كعشر ذي الحجة وعشر المحرم الأوائل وعشر رمضان الأواخر، وقد تزيد كشهر رمضان

وشهر شعبان وصيام شهر المحرم. وقد ثبت في علم الطب النفسي أنّ النفس إذا تعودت على شيء ودامت عليه عشرة أيام صار عادةً سهلةً لها، فسبحان الحكيم الخبير!!

- ومن رحمة الله كثرة هذه المواسم وتكررها؛ لتكون بمثابة الدواء الناجع للنفوس والمنبِّه لها من غفلاتها حينًا بعد حين، ولأنّه كلما كانت الحالة الإيمانية قبل هذه المواسم أكمل كان العطاء فيها أعظم، فإذا تكررت هذه المواسم على القلوب وأحسن العبد استغلالها كلها كان في كل موسمٍ أقوى إيمانًا من الذي سبقه وكان عطاءُ الله له في الموسم الثاني أقوى من الأول، ولا يزال هكذا يترقى في درجات الإيمان وأحوال الإحسان إلى أن يموت؛ إذ لا تكاد تنتهي الكمالات الإيمانية. ولا يشترط في عطاءات الإيمان أن تكون في أثناء المواسم الإيمانية ذاتها بل كثيرًا ما تكون بعدها فلا ينبغي التكاسل أو الملل لعدم شعور العبد بحلاوة الإيمان أو زيادته أثناء هذه المواسم رغم اجتهاده؛ لأنّ

العطاء الإيماني قد يكون بعد انتهاء الموسم نفسه كأجر العامل الذي يُعطاه بعد نهاية العمل. وأعظم أجرٍ للمؤمن على طاعته في الحقيقة هو زيادة الإيمان إلى جانب ما ينتظره من الثواب عند الله.

فائدة:

من أعظم ما يحتاجه العبدُ في سيره إلى الله قوة الإرادة والعزيمة على فعل الخير. ويقوِّي هذه الإرادة علمه بفضل العمل الصالح الذي يريد فعله؛ فإن النفس إذا شوِّقت إلى الخير اشتاقت وتاقت. فإذا دام العبد على ترك الطاعات مع وجود نوازع في نفسه للعمل بها تضاءلت في قلبه إرادة الخير حتى يصل إلى العجز، وهو انعدام إرادة الخير في قلبه، فعلى العبد أن يستجيب لداعي الخير في قلبه ولا يتكاسل حتى لا يصل إلى هذا العجز. قال بعض السلف: إذا فُتح لأحدكم باب خيرٍ فليلج؛ فإنه لا يدري متى يُغلق عنه. ومن أعظم فوائد مواسم الخير عمومًا وشهر رمضان خصوصًا هو

تيسير إرادات الخير، وهذا معنى حديث: «إذا كان رمضان فتحت أبواب الجنة فلم يُغلق منها باب وغلِّقت أبواب النار فلم يُفتح منها باب، ونادى منادٍ: يا باغي الخير أقبل ويا باغي الشر أقصر» (رواه مسلم)، فمعنى قوله «يا باغي الخير أقبل» هو تيسير الطاعات وسهولتها وقوة الإرادة في النفس على فعلها بحيث يستطيع العبد فعلها بأدنى إكراهٍ للنفس.

تنبيه هام:

يلاحظ أنّ ثواب الاجتهاد في هذه المواسم جُعل مغفرة الذنوب كقوله ﷺ: «من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدّم من ذنبه»، وقال أيضًا: «من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدّم من ذنبه»، وقال أيضًا: «من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدّم من ذنبه»، وقال أيضًا عن صيام يوم عرفة: «يكفِّر ذنوب سنتين»، وقال عن صيام يوم عاشوراء: «يكفِّر ذنوب سنة». وفي هذا تنبيهٌ على لزوم الاستغفار والإكثار منه في هذه المواسم لينال المرء المغفرة،

كما أنّ فيه تنبيهًا على أهمية لزوم الاستغفار والإكثار منه؛ ولذا قال أنس رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: **«ما رأيتُ أحدًا أكثر استغفارًا من رسول الله ﷺ»** (رواه مسلم) وقال ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنهُمَا: **«كنا نعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد: مائة مرة رب اغفر لي وتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم»** (رواه مسلم).

• قال رسول الله ﷺ لمّا سئل عن النجاة أيام الفتن: **«أمسك عليك لسانك، وابكِ على خطيئتك وليسعك بيتك»** (رواه مسلم).

وسرُّ الجمع بين هذه الثلاثة أنّ أساس الخطايا هو اللسان كما في الحديث **«إذا أصبحت الأعضاء فإنها تكفِّر اللسان وتقول له: اتقِ الله فينا؛ فإنما نحن بك، إن استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا»** (رواه الترمذي وصححه الألباني) فلا يستقيم الندم على الخطايا مع إطلاق اللسان، ثمّ التوبة والندم على الخطايا يضعف أثرهما ويفسد مع كثرة مخالطة الناس بلا فائدة.

ـ وفي قوله «ابكِ على خطيئتك» تنبيهٌ على أهمية محاسبة النفس ومراجعة أخطائها وسيئاتها وعيوبها بل والمداومة على ذلك والإكثار منه حتى تصل النفس إلى مرحلةٍ من الندم تبكي معها على خطاياها وليس يُكتفَى بحصول ذلك مرةً بل لابد وأن يكون هذا هو حالها الدائم.

ـ واعلم أنّ مداومة العبد على ذكر سيئاته وآفات قلبه ولسانه تورثه التواضع لله ولخلقه فلا يكاد يجد كبرًا أو عجبًا أو إدلالًا أو منًّا بفعل الخير كما تورثه أيضًا الشفقة على العصاة بدلًا من التكبر عليهم والتعالي عليهم، بل يدعو لهم بالهداية والتوفيق للخير.

ـ كما أنّ مداومة تذكر العبد لخطاياه تورثه الصبر بل والرضا بالبلاء لعلمه باستحقاقه العقوبة ولرجائه منها أن تكون سببًا لتكفير سيئاته. ويروى عن أحد الصالحين أنّه مرّ في طريق فوقع عليه رمادٌ من بيت فقال: من استحق النار فصولح برمادٍ فقد أُحسن إليه. واعتدى قومٌ على إبراهيم بن

أدهم بالضرب على رأسه فقال لهم: اضربوا رأسًا طالما عصى الله عزّ وجلّ. ووطئ زين العابدين في طوافه على قدم رجلٍ لا يعرفه من غير قصد فقال له الرجل: إنّك مرائي فقال: ما عرفني أحدٌ غيرك.

ـ كما تورثه الإخلاص في عمله بحيث يعمل كل طاعةٍ صغرت أو كبرت وهو يرجو العفو والمغفرة؛ ولذا كان أفضل ما يقول المرء في ليلة القدر كما في الحديث: «**اللّهمّ إنك عفوٌّ تحب العفو فاعف عني**» (رواه الترمذي وصححه الألباني)، ولا يتصور إخلاصٌ في هذا الدعاء ولا صدقٌ ولا إلحاح إلّا من قلبٍ معترفٍ مقرٍّ بخطاياه ونفسٍ تداوم على المحاسبة وإلّا كان مجرد كلمات لا حقيقة لها، ومثل هذا الدعاء لا يكاد يُستجاب له ولا يكاد ينتفع به الداعي. مرّ معروف الكرخي على سقّاء (معه ماء) وهو يقول: غفر اللهُ لمن شرب من مائي فذهب إليه وشرب فسأله أصحابه: هل تعرفه؟ فقال: لا ولكني قلتُ عسى أن يكون مجاب الدعوة

فيغفر الله لي. فانظر كيف كانت عينه على المغفرة على الدوام، ولو في مثل هذه الأمور اليسيرة؟!!

• وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أنّ النبي ﷺ كان إذا حَزَبه أمرٌ فزع إلى الصلاة» (رواه الترمذي وصححه الألباني).

وفيه أهمية الارتباط بالصلاة وعظيم الحاجة إليها لأنّه ما من أحدٍ إلّا ويلقى في هذه الحياة كبدًا ومشقةً، وكثيرًا ما ينتاب المرء في حياته من الهموم والغموم التي لا قدرة له ولا لغيره من البشر على حلّها، ففي فعل النبي ﷺ ذلك بيان لوسيلة مواجهة هذه المكابد والمشاق وإزالة هذه الهموم والغموم، ألا وهي الإقبال على الصلاة وإطالتها والإكثار من الدعاء والإلحاح على الله فيها.

• وسئلت عائشة عن أحبّ العمل إلى رسول الله ﷺ فقالت: «أدومه وإن قلّ» (رواه الترمذي وصححه الألباني).

وفيه بيان أنّ أفضل العمل هو ما داوم عليه المرء، وإن قلّ؛ وذلك لأنّ المداومة على العمل تؤثر في القلب، ولو بعد

حين؛ كقطرات الماء التي تنزل على الصخرة، فإنها تكون أقوى أثرًا من سيل ماءٍ انهمر على الصخرة ثمّ انقطع. كما أنّ العمل المداوم عليه يجد المرءُ ألمًا عند تركه ممّا يدفعه إلى الندم على التقصير في طاعة الله بخلاف الذي لا يداوم على الطاعة، فإنه لا يكاد يجد ألمًا لترك طاعة.

ـ كما أنّ مداومة المرء على الطاعة ـ وإن قلّت ـ سوف يورثه حلاوة الإيمان ولو بعد حين ممّا يدفعه إلى الاستزادة من الطاعات شيئًا فشيئًا بخلاف من لا يداوم على الطاعات؛ فإنه لا يكاد يجد حلاوة الطاعة.

ـ كما أنّ الذي يداوم على طاعاتٍ قليلة إذا وجد فتورًا أو تكاسلًا ـ وهذا لابد منه ـ فإنه سيسهل عليه إكراه نفسه على هذه الطاعات القليلة بخلاف الذي يكثر على نفسه من فعل الطاعات وينقطع عنها؛ فإنه عند شعوره بالفتور لن يستطيع إكراه نفسه على هذه الطاعات، بل وربما لا يستطيع إكراهها على شيء منها ولو قلّ، فلا يزال مداومًا على ترك الطاعات

حتى تضعف إرادة الخير في قلبه شيئًا فشيئًا حتى تنعدم بالكلية ويصير عاجزًا، بخلاف الأول المداوم على الطاعة وإن قلّت؛ فإنّه لن يزال مريدًا للطاعات غير تاركٍ لها ولو بأقل القليل، وهذه فائدة كبرى ـ أعني المحافظة على إرادة النفس للخير على الدوام وعدم إصابة النفس بالعجز.

ـ كما أنّ المداوم على طاعاتٍ قليلة سوف يحرص على الإخلاص فيها والصدق حتى لا يفسد عليه عمله الذي هو قليل ممّا يكون أدعى لقبول العمل بخلاف الذي يعمل طاعاتٍ كثيرة وينقطع عنها؛ فإنه ربما يداخله العجب أو الرياء، وقد لا يحرص على تحسين العمل كما يحرص الأول.

• وكان ﷺ يكثر من تذكير الناس بالجنّة والنار في صلواته كلّها بل وفي هديه كله، والمتأمّل لهديه ﷺ يجد ذلك واضحًا جليًّا، فقد كان ﷺ حريصًا على ذكر الجنّة والنار كل ليلة قبل نومه، قالت عائشة: «كان رسول الله

ﷺ لا ينام حتى يقرأ سورة الزمر» [السلسلة الصحيحة: ٦٤١]، وفيها قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ (الزمر: ٧١)، وقوله: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًا﴾ (الزمر: ٧٣)، وقال جابر: «كان ﷺ لا ينام حتى يقرأ: (آلم تنزيل) السجدة و(تبارك الذي بيده الملك)» [السلسلة الصحيحة: ٥٨٥]، وفيها ذكرٌ كثير للجنة والنار، ويراه كذلك حريصًا على التفكُّر في شأن الجنة والنار عند استيقاظه من نومه، فقد بات عنده ابن عباس ليلةً فلمّا استيقظ قرأ آخر آيات سورة آل عمران: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ١٩٢ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ١٩٤ فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ

رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ (آل عمران: ١٩٠ - ١٩٥)

- كما في الصحيح - بل ورد عنه أنه كان يقرأ هذه الآيات كل ليلة ولكن سنده ضعيف - كما قال ابن كثير، ويراه كذلك حريصًا على ذكر ذلك في كل صلاةٍ يصليها سواءٌ كانت فرضًا أو نفلًا، بل قد أمر كل مصلٍّ بذلك، فعن أبي هريرة مرفوعًا: **«إذا فرغ أحدكم من التشهد الآخر، فليستعذ بالله من أربع؛ يقول: اللّهمّ إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر فتنة المسيح الدجال»** (رواه مسلم والنسائي)، بل جعل أدعية الصلاة كلها تدور حول ذلك، فقد قال لرجلٍ: **«ما تقول في الصلاة؟»** فقال: أتشهد ثمّ أسأل الله الجنة وأعوذ به من النار، أما والله ما أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ. فقال ﷺ: **«حولهما ندندن»** (رواه أبو داود وابن ماجه وصححه الألباني)، ويجده حريصًا

في المجامع والمحافل على تذكير الناس بالجنة والنار، **فقد كان يقرأ في الجمعة بالأعلى والغاشية** (رواه مسلم)، **وأحيانًا بالجمعة والمنافقون** (رواه مسلم)، **وكان يصلي في العيدين بالأعلى والغاشية** (رواه مسلم)، **وأحيانًا بـ ق والقمر** (رواه مسلم)، ويجده حريصًا في كل أسبوع في صلاة فجر يوم الجمعة على تذكير الناس بالجنة والنار، **فقد كان يقرأ «بآلم السجدة والإنسان في فجر كل جمعة»** (رواه البخاري ومسلم).

بل يجد حرصه ﷺ لنفسه وللمؤمنين معه على دوام تذكر الجنة والنار في كل صلواته سواء السرية أو الجهرية، فقد كان يقرأ ـ في معظم أحيانه ـ في صلواته بالمفصَّل الذي هو أكثر أحزاب القرءان اشتمالًا على آيات الجنة والنار، **ففي الفجر كان يقرأ فيها بطوال المفصَّل** (رواه النسائي وأحمد وصححه الألباني)، **وربما قرأ فيها بالواقعة** (رواه أحمد وابن خزيمة وصححه الألباني)، **وربما بالطور** (رواه البخاري ومسلم)، **وربما بـ ق** (رواه مسلم)، وربما بقصار المفصل كـ **«إذا الشمس كورت»** (رواه

مسلم)، **وقرأ مرةً بـ «إذا زلزلت الأرض»** (رواه أبو داود وصححه الألباني)، **وفي الظهر (وكذا في العصر قاله الألباني) ربما قرأ بـ «إذا السماء انشقت»** (رواه ابن خزيمة وصححه الألباني)، **وربما قرأ بـ الطارق، و«السماء ذات البروج»، و«الليل إذا يغشى»** (رواه أبو داود والترمذي وصححه الألباني)، **وفي المغرب يقرأ أحيانًا بقصار المفصل** (رواه البخاري ومسلم)، **وأحيانًا بطوال المفصَّل وأوساطه كسورة «محمد»** (رواه ابن خزيمة والطبراني وصححه الألباني)، **وأحيانًا بالطور وبالمرسلات** (رواه البخاري ومسلم)، **وفي العشاء يقرأ من وسط المفصل** (رواه أحمد والنسائي)، **وكان يقرأ فيها بالشمس وضحاها** (رواه أحمد والترمذي وحسنه)، **وتارة بـ «إذا السماء انشقت»** (رواه البخاري ومسلم)، وكان يقرأ في هذه الصلوات بغيرها أيضًا ولكن أكثر قراءته كانت لحزب المفصَّل، وهذه السور التي ذكرناها مليئة بذكر الجنة والنار، فعلى الدعاة والأئمة والوعاظ أن يكثروا من قراءة هذه السور ومن التركيز على حزب المفصل كما كان يفعل ﷺ. بل كان

ﷺ يكثر من قراءة السور المليئة بذكر الجنة والنار على الدوام حتى شاب، ففي الحديث: **«شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت»** [السلسلة الصحيحة: ٩٥٥].
ويجد حرصه كذلك على أن يكون ذكر الجنة والنار ديدن كل مسلم على الدوام: فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من سأل الله الجنة ثلاث مرات قالت الجنة: اللّٰهم أدخله الجنة، ومن استجار من النار ثلاث مرات قالت النار: اللّٰهم أَجِره من النار»** (رواه الترمذي والنسائي) (انظر صحيح الجامع: ٦٢٨٠).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضًا قال: كان أكثر دعاء النبي ﷺ: **«ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار»** (رواه البخاري). وقد فهم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ منه ﷺ ذلك فراحوا ينشرون في الناس هذا الهدي؛ يقول د. خالد أبو شادي معلقًا على حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا قال ﷺ: **«إذا فرغ أحدكم من التشهد الأخير، فليتعوذ بالله من**

أربع: من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر فتنة المسيح الدجال».

فهذه خمس مرات يوميًّا على الأقل يذكر فيها المسلم جهنم ويتعوذ منها؛ جعلها الله فريضةً يذكرها المرء إجباريًّا، فلا مجال للنسيان أو الانشغال وعندما تنتهي صلاتك فلا تفعل جوارحك ما يوردك ما تعوذ منه لسانك منذ لحظات، وإلا كنت ...!! كنت ماذا؟!

بل حرص النبي ﷺ على أن يُعَلِّم أصحابه هذا الدعاء ويُحَفظهم إياه كأنه سورة من القرءان!! فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ «كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرءان، قولوا: **اللَّهمّ إني أعوذ بك من عذاب جهنم وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات**».

وورث أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المهمة واستمر في أداء الرسالة قائمًا بها على أكمل وجه وذلك بطريقة مبتكرة وصيحة

متكررة، فكان له صيحتان كل يوم: أول النهار وآخره، يقول: ذهب الليل وجاء النهار، وعرض آل فرعون على النار، فلا يسمعه أحد إلا استعاذ بالله من النار.

يا من يطمح في العتق من النار ثم يمنع نفسه الرحمة بالإصرار على كبائر الآثام والأوزار. استعذ بالله من النار.

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كان رسول الله ﷺ إذا كان في سفر فأسحر يقول: **سمع سامع بحمد الله وحسن بلائه علينا، ربنا صاحِبْنا وأفْضِل علينا، عائذًا بالله من النار**». أ. هـ.

قلتُ: وكيف لا يكون هذا هو هديهم، وقد جعل الله ما في الدنيا مذكرًا بالجنّة والنار!! قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾ (الواقعة: ٧١ - ٧٣).

وقال ﷺ: «**اشتكت النار إلى ربها وقالت: أكل بعضي بعضًا، فجعل لها نَفَسين: نفسًا في الشتاء ونفسًا في الصيف،**

فأما نفسها في الشتاء فزمهرير، وأما نفسها في الصيف فسموم» [السلسلة الصحيحة: ١٤٥٧]، وفي رواية: **«فأشد ما تجدون في الشتاء من البرد فمن زمهريرها، وأشد ما تجدون في الصيف من الحرّ فمن سمومها»**، وكان أبو الدرداء يقول: «نِعْم البيت الحمام يُذهب الوسخ ويذكِّر النار» (رواه البيهقي في السنن الكبرى).

وكان كثيرٌ من السلف إذا مرّ بالحدادين استعاذ بالله من النار، وإذا مرّ بسوق الرياحين (أماكن تباع فيها العطور الطيبة الرائحة ـ والله أعلم ـ) سأل اللهَ الجنّة.

وفي ذلك كلّه ترسيخ لأهمية دوام ذكر الجنّة والنار وتنبيهٌ على أهمية ذلك في زيادة الإيمان. وسرّ ذلك أنّ الإكثار من التفكر في الجنّة يزيد من شوق العبد إليها ممّا يدفعه إلى مزيدٍ من الاجتهاد في طاعة الله، كما أنّ الإكثار من ذكر النار يزيد من خوف العبد منها ممّا يدفعه إلى ترك المعاصي والمخالفات، وبفعل الطاعات وترك المعاصي يزيد الإيمان. كما أنَّ التفكر

في الجنّة والنّار يساعد المؤمن على إتقان العمل الصالح والصدق فيه؛ وذلك لأنّ التفكُّر فيهما يرقق القلب ويهذِّب النفس ممّا يؤدي إلى الصدق والإخلاص والخشوع.

● وكان ﷺ في كل خطبةٍ يقول: «ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا» (رواه الترمذي وصححه الألباني). وفي ذلك تنبيهٌ عظيم على أهمية وضرورة التنبه لشرور النفس وطباعها وآفاتها المهلكة؛ فهي شديدة الكسل عن الخير لا تكاد تُقدِم عليه إلّا بإكراه. قال ابن المبارك: كانت نفوس الصالحين تواتيهم على الطاعة وأمّا نحن، فلابد أن نكرهها عليها. والمقصود هو إكراهها على ما يمكن إجبارها عليه. ولابد أن يكون الإكراه على الطاعة تدريجيًّا حتى تمكن الاستقامة على ذلك، وإلّا فمن أراد إكراهها على الطاعات جملةً لم يمكنه ذلك جملةً. كما أنّ من ترك إكراهها على ما يُسهل إكراهها عليه آل به الأمر إلى تزايد كسله حتى يصل إلى درجة العجز عن فعل أيّ شيءٍ من الخير، والعياذ بالله.

فالطريق الصحيح إذًا هو التدرج مع النفس ولكن مع الالتزام بإكراهها على ما يَسهُل عليها، فإذا دامت النفس على ذلك مدةً زاد عليها شيئًا فشيئًا؛ كلما استقامت على أمرٍ من الخير شهورًا زادها، وهكذا أبدًا.

ـ فإذا وصل العبدُ إلى حد العجز هذا فلا ييأس بل عليه أن يدعو الله بصدقٍ وإخلاصٍ حتى يهديه؛ فإنّما الهداية بيد الله وحده لا شريك له. ولا سبيل إلى الدعاء بصدقٍ إلّا بعد شعور النفس بكراهية هذا العجز والكسل عن الطاعات. ولا تصل النفسُ إلى هذه الكراهية حتى تكثر من قراءة الآيات والأحاديث التي تحث على العمل الصالح وتحذر من الكسل، مع الاطلاع على كلام أهل العلم في تفسيرها. وكذا قراءة آيات وأحاديث ذكر الجنة والنار مع الاطلاع على تفسيرها. وكذا الاطلاع على سير الصالحين. وأخيرًا حضور مجالس الوعظ والاطلاع على كتب الوعظ والزهد. فمن دام على هذه الأربع اشتاقت نفسه إلى العمل الصالح وكرهت حال العجز

والكسل ولابد. وحينئذٍ يكون دعاؤها بالهداية والاستقامة دعاءً صادقًا. وإذا صدقت النفس في دعائها استُجيب لها ولو بعد حين، ولكن لابدّ من المداومة وعدم اليأس. قال أحد الصالحين: لي إلى الله حاجة أدعو بها منذ عشرين سنة وما أنا بتاركٍ الدعاء حتى يُستجاب لي. وقال آخر: من اعتاد طَرْق الباب أوشك أن يُفتَح له. وقال ثالث: من سلك طريقًا إلى غايةٍ بعيدةٍ وداوم سيره وصل ولو بعد حين.

ـ ومن طباع النفس كذلك التي ينبغي التنبه لها: أنّها إذا فعلت الخير أُعجبت به وركنت إلى عملها ووثقت في قدرتها ونست فضل الله عليها. فإذا وصلت إلى هذه المرحلة ابتلاها الله ووكلها إلى طاعتها وعملها فتخفق وتفشل؛ ليكون ذلك سببًا لفهمها الحقيقة، وهي أنّ الأمر بيد الله ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (يُونُس : ٥٨)، فمن أراد الله به الخير بصّره وهداه، ومن لم يرد به خيرًا وكله إلى نفسه وأغواه، نعوذ بالله من ذلك.

تنبيهان:

١- أحيانًا يجد العبد في نفسه كسلًا عظيمًا عن الخير فإذا ألزمها بقدرٍ يسيرٍ من الطاعة زادت عليه. فمثلًا يجد في نفسه تكاسلًا عن قيام الليل بالكلية، فإذا ألزمها بركعتين يقرأ فيهما عشر آيات ليحصِّل أقل قدر **«مَنْ قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين»** (رواه الترمذي وصححه الألباني)، وفي الحديث الضعيف: **«لابد من قيام الليل ولو فواق ناقة»** أي: قدر حلب الناقة. فإذا ألزمها بذلك شعرت بحلاوة القرءان وبحلاوة الصلاة فزادت ما شاء الله. ولو أنّه ألزمها أولًا بقدرٍ طويل لتركت القيام جملةً. وكذلك ربما يجد في نفسه كسلًا عن قراءة القرءان، فإذا ألزمها بقراءة قدرٍ يسير وجدت حلاوة الآيات، فزادت من القراءة ما شاء الله.

٢- لابد من المداومة على الطاعة حتى تزول الجفوة بين النفس وبين هذه الطاعة. فمثلًا إذا داوم العبد على ترك

قراءة القرءان وترك قيام الليل وترك النوافل، فإنه سيجد كسلًا عظيمًا عن هذه الطاعات. فحتى تزول الجفوة بينه وبين هذه الطاعات لابد من المداومة عليها والإكثار منها حتى تزول هذه الجفوة، فإذا زالت الجفوة ولم يجد العبدُ عند فعل هذه الطاعات كسلًا أو مللًا، فهذه بداية الاستقامة، وحينئذٍ يمكن للعبد أن يجتهد في نيل حلاوة هذه الطاعات، وذلك بالتدبر فيها والتأمّل والخشوع. ومع زيادة اجتهاد العبد في ذلك يزداد شعوره بحلاوة الإيمان عند فعل هذه الطاعات.

● وقال ﷺ: **«تابعوا بين الحج والعمرة؛ فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خَبَثَ الحديد والذهب والفضة»** (رواه الترمذي وصححه الألباني). ونفي الذنوب كما يشمل تكفير السيئات ومغفرة الذنوب يشمل كذلك وقاية العبد من الوقوع في الذنوب. وكذا يشمل زيادة الإيمان التي بها تقلّ الذنوب والخطايا.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (آل عمران : ٩٦)، فقال ﴿ وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ ولم يقل «فيه هدىً» لبيان عظيم أثره في الهداية فهو نفسه هداية، وكفى بهذا فضلًا!! ولم يقل «فيه بركة» بل قال ﴿ مُبَارَكًا ﴾، فهو نفسه مبارك، ومن أعظم البركة ما يسبِّبه من الهداية والرشاد لمن زاره حاجًّا أو معتمرًا.

إخواني .... كم تجاهدون أنفسكم طيلة العام في طاعة الله، ولكن كم تخفقون! وكم ترومون الاستقامة على الطاعة، ولكن تعجزون!! وكم تحاولون الثبات، ولكن كثيرًا ما تتكاسلون فاعترفوا بعجزكم وتقصيركم وارفعوا شكايتكم إلى خالقكم في بيته الحرام ... ألحُّوا عليه واسألوه من فضله ورحمته وأنتم في ضيافته ... لا تكتفوا بزيارة البيت مرةً أو مرتين بل تابعوا بين الحج والعمرة ما استطعتم إلى ذلك سبيلًا ... فإنّ الوسخ كلما كثر احتاج إلى إعادة الغسل مرةً بعد مرة حتى يطهر بالكلية ... تضرعوا إلى

ربكم بالمعافاة واليقين ... تعوذوا به من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء ... فما أدمن عبدٌ الدعاءَ هنالك إلّا وجد الخير والبركة ... ولكن ادعوا دعاء يائسٍ من نفسه، كارهٍ لسوء حاله وتقصيره، واثقٍ في فضل الله وإحسانه ...

إخواني .... استجمعوا آفات قلوبكم ونقائص عيوبكم ... وتضرعوا إلى الله بزوالها وتطهيرها ... واعلموا أنّ من أعظم ما ترجعون به من البيت الحرام هو النور الذي تجدونه في قلوبكم والبصيرة، فتبصرون بها عيوبًا لم تكن ظاهرةً لكم إلى جانب ما يكرمكم به ربكم من تطهيركم من الآفات والعيوب التي دعوتم بتطهيرها ... فإذا سافرتم ثانيةً ودعوتم بزوال ما ظهر لكم من عيوب عدتم بنورٍ أتمَّ وبصيرةٍ أكمل تبصرون معها عيوبًا أخرى، وهكذا أبدًا، والله المستعان.

• وقال ﷺ: «**ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخيرٌ لكم من إنفاق الذهب**

والوَرِق وخيرٌ لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: ذكر الله» (رواه الترمذي وصححه الألباني) وقال ﷺ: «**سبق المفرِّدون**». وقالوا: ومن المفردون يا رسول الله؟ قال: «**الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات**» (رواه مسلم)، وفي هذا بيان عظيمِ فضل الذكر، وأنه أفضل الأعمال عند الله، وأعظمها أجرًا وأرفعها لدرجات العبد في الجنّة، وأنه خيرٌ من الصدقة ومن الجهاد!! والمقصود بذلك هو الذكر الذي يتواطأ فيه القلب مع اللسان ويدوم عليه المرء ليل نهار، فيكون لسانه رطبًا من ذكر الله كما في الحديث، ويكون من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات كما في الآية؛ ولعظيم فضله أمر الله بالإكثار منه، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: ٤١).

ـ ومن عظيم فضل الذكر أن صار سببًا لمغفرة الذنوب على الدوام؛ ففي الحديث «**من قال دُبُرَ كل صلاة مكتوبة: سبحان الله ثلاثًا وثلاثين، والحمد لله ثلاثًا وثلاثين، والله**

أكبر ثلاثًا وثلاثين وقال المائة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، غفرت له ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر» (رواه مسلم)... فبإمكان المرء أن ينال المغفرة في كل يوم وليلة خمس مرات ... وقال ﷺ: «خصلتان لا يحصيهما عبدٌ إلّا دخل الجنة، وهما يسير، ومن يعمل بهما قليل: يسبِّح الله أحدُكُم دبر كل صلاة عشرًا، ويحمده عشرًا، ويكبِّره عشرًا، فتلك مائة وخمسون باللسان، وألف وخمسمائة في الميزان، وإذا أوى إلى فراشه يسبح الله ثلاثًا وثلاثين، ويحمد ثلاثًا وثلاثين، ويكبر أربعًا وثلاثين، فتلك مائة باللسان، وألف في الميزان»، قال: قال رسول الله ﷺ: «وأيكم يعمل في يومه وليلته ألفين وخمسمائة سيئة؟ قال عبد الله: رأيت رسول الله ﷺ يعقدهنّ بيده. قال: قيل: يا رسول الله كيف لا نحصيها؟ قال: يأتي أحدكم الشيطان وهو في صلاته، فيقول له: اذكر كذا، اذكر كذا، ويأتيه عند منامه فينوِّمه» (رواه أبو داود وصححه الألباني).

ـ ومن أعظم الذكر أثرًا في صلاح القلوب الصلاة على النبي ﷺ، قال أُبي بن كعب: يا رسول الله: «إني أكثر الصلاة، فكم أجعل لك من صلاتي؟ قال: **ما شئت**، قال: قلتُ: الربع؟ قال: **ما شئت وإن زدت فهو خيرٌ لك**، قال: قلتُ: النصف؟ قال: **ما شئت وإن زدت فهو خيرٌ لك**، قال: فثلثين؟ قال: **ما شئت وإن زدت فهو خيرٌ لك**، قال: أجعل لك صلاتي كلها؟ قال: **إذًا يُكفى همُّك ويُغفر لك ذنبك**» (رواه أحمد والترمذي وحسنه الألباني). ولا همّ عند المؤمن أعظم من نقص دينه وقلة إيمانه!! ولا كرب عنده أعظم من شدة تكاسله عن الطاعات وقلة سعيه في الخيرات!! وقد قال ﷺ أيضًا: «**أتاني آتٍ من ربي عز وجل، فقال: مَنْ صلّى عليك من أمتك صلاةً كتب الله له بها عشر حسنات، ومحا عنه عشر سيئات، ورفع له عشر درجات، وردّ عليه مثلها**» (رواه أحمد والنسائي وصححه الألباني). وأيُّ خيرٍ ينتظره العبدُ بعد صلاة الله عليه؟!! خاصةً وأنه قد ورد في رواية «**لا يصلي**

عليك أحدٌ من أمتك إلّا صليتُ عليه عشرًا، ولا يُسلِّم عليك أحدٌ من أمتك إلّا سلّمتُ عليه عشرًا».

- ومن أنفع وأفضل أوقات الذكر، ذكر الله في العشر الأوائل من ذي الحجة؛ فإنّ الذكر فيها والإكثار منه بمثابة زادٍ للعبد يكون معه طوال العام؛ ولذا قال النبي ﷺ: **«فأكثروا فيهنّ من التهليل والتكبير والتحميد»** (رواه أحمد والنسائي وصححه الألباني)، وقال عن يوم عرفة: **«أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة، وأفضل ما قلتُ أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير»** (رواه أحمد والنسائي وصححه الألباني)، فدل على أنّ هذا هو أفضل ما يقال في يوم عرفة كما أنه هو أفضل الذكر على الإطلاق.

● وكان ﷺ يحث أصحابه على زيارة القبور والإكثار من ذكر الموت فقال: **«أكثروا من ذكر هادم اللذات»** (رواه أحمد والنسائي وصححه الألباني)، وقال: **«كنتُ نهيتكم عن زيارة**

القبور ألا فزوروها فإنها تذكر الآخرة» (رواه أحمد وصححه الألباني)، وروى الإمام أحمد وابن أبي الدنيا عن أنس أنّ النبي ﷺ قال: **«كنتُ قد نهيتكم عن زيارة القبور، ثمّ قد بدا لي أنها ترقُّ القلب وتُدمع العين وتذكّر الآخرة، فزوروها ولا تقولوا هُجرًا»**.

وذكر ابنُ أبي الدنيا، عن محمد بن صالح التمار قال: كان صفوانُ بن سليم يأتي البقيع في الأيام فيمر بي، فاتبعته ذات يوم. وقلتُ: والله لأنظرنَّ ما يصنع. قال: فقنَّع رأسه وجلس إلى قبر منها، فلم يزل يبكي حتى رحمته. قال: ظننتُ أنه قبر بعض أهله. قال: فمر بي مرة أخرى، فاتبعته (فقعد) إلى جنب قبر غيره. ففعل مثل ذلك فذكرتُ ذلك لمحمد بن المنكدر، وقلتُ: إنَّما ظننتُ أنه قبر بعض أهله. فقال محمد: كلهم أهله وإخوانه، إنَّما هو رجل يُحرك قَلْبه بذكر الأموات، كلما عرضت له قَسوةٌ. قال: ثم جعل محمد بن المنكدر بَعْدُ يَمُرُّ بي فيأتي البقيع، فسلَّمتُ عليه ذات

يوم، فقال: ما نفعتك موعظة صفوان. قال: فظننت أنه انتفع بما ألقيتُ إليه منها.

وذكر أيضًا أنَّ عجوزًا مُتَعَبِّدةً من عبد القيس كانت تُكثر من إتيان القبور، فعُوتبت في ذلك، فقالت: إنَّ القلب القاسي إذا جفا لم يليِّنه إلَّا رسوم البِلى، وإنِّي لآتي القبور وكأني أنظر إليهم وقد خرجوا من بين أطباقها، وكأني أنظر إلى تلك الوجوه المتعفِّرة، وإلى تلك الأجسام المتغيِّرة، وإلى تلك الأكفان الدنسة. فيا له من منظر!!.

وقال زياد النميري: ما اشتقت إلى البكاء إلَّا مررتُ عليه. قال له رجل: وكيف ذلك؟ قال: إذا أردتُ ذلك خرجتُ إلى المقابر فجلستُ إلى بعض تلك القبور، ثم فكَّرتُ فيما صاروا إليه من البلى، وذكرت ما نحن فيه من المُهلة. قال: فعند ذلك تختفي أَطْواري!

وروى ابنُ أبي الدنيا في كتاب «التفكُّر والاعتبار»، بإسناده عن عُمر بن سليم الباهلي، عن أبي الوليد، أنه قال:

كان ابن عمر إذا أراد أن يتعاهد قلبَه يأتي الخربة فيقف على بابها، فيُنادي بصوت حزين، فيقول: أَين أهلك؟ ثم يرجع إلى نفسه، فيقول: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾.

وروى في كتاب «القبور» بإسناده، عن محمَّد بن قُدامة قال: كان الرَّبيعُ بن خُثيم إذا وجد مِن قلبه قسوةً يأتي منزل صديق له قد مات في الليل فيُنادي: يا فُلان بن فلان، يا فلان بن فلان. ثم يقول: ليت شِعري، ما فعلتَ وما فُعل بك؟ ثم يبكي حتى تسيل دموعه، فيُعرَف ذاك فيه إلى مثلها.

وقال ابن الجوزي: أيقظنا الله وإياكم من هذه الرقدة، وذكَّرنا الموت وما يأتي بعده، وألهمنا شكره على النعم وحمده، إنه كريم لا يَردّ عبده.

وقال أيضًا: كم من ظالم تعدَّى وجار، فما راعى الأهل ولا الجار، بَيْنَا هو يعقد عَقْد الإصرار حَلَّ به الموت فحلّ من حُلته الأزرار ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾.

ما صحبه سوى الكفن إلى بيت البِلى والعفن، لو رأيته وقد حلّت به المِحَن، وشِين ذلك الوجه الحسن، فلا تسأل كيف صار ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾.

سال في اللحد صَدِيده، وبَلِي في القبر جَدِيده، وهجَره نَسِيبه ووَدِيده، وتفرق حشَمه وعبيده والأنصار ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾.

أين مجالسه العالية، أين عيشته الصافية، أين لَذَّاته الخالية، كم كم تَسْفي على قبره سافِية، ذهبت العَيْن وأُخفيت الآثار ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾.

تقطَّعت به جميعُ الأسباب، وهجَره القرناء والأتراب، وصار فراشه الجندل والتراب، وربما فُتِح له في اللحد باب النار ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾.

خلا والله بما كان صَنع، واحتوشه الندمُ وما نفع، وتمنَّى الخَلَاص وهيهات قد وقع، وخلَّاه الخليلُ المصافِي وانقطع،

واشتغل الأهل بما كان جمع، وتملك الضِدُّ المالَ والدار ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾.

نادمٌ بلا شك ولا خفَا، باكٍ على ما زَلَّ وهفَا، يودّ أنّ صافِي اللذات ما صفا، وعلم أنه كان يَبْني على شَفا جُرُف هار ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾.

وقال ابن الجوزي كذلك:

قائـدُ الغفلـة الأمـل ... والهـوى رائـد الزلـلْ
قتـل الجهـل أهلـه ... ونجـا كـل مـن عقـلْ
فـاغتنم دولـة الـشيـ ... بـة واسـتأنف العمـلْ
أيهـا المبتنـي الحـصو ... ن وقـد شـاب واكتهـلْ
أخْـبَرَ الـشيبُ عنـك أنـ ... نَـكَ في آخـر الأجَـلْ
فعـلامَ الوقـوفُ في ... عَرْصـة العَجْـز والكسلْ
منـزل لم يَـزلْ يـضيـ ... ق وينبـو بمـن نـزلْ
أنـت في منـزل إذا ... حلَّـه نـازلٌ رحـلْ

طوبى لمن غسل درنَ الذنوب، ورجع عن خطاياه قبل فوت الأوبة، وبادر الممكن قبل أن لا يمكن، من رأيت مِن آفات دنياه سَلِم، ومن شاهدته صحيحًا وما سقم، وأي حياة بالموت لم تنختم، وأي عمر بالساعات لم ينصرم، إن الدنيا لغرور حائل، وسرور إلى الشرور آيل، تُردي مستزيدَها وتؤذي مستفيدها، بينما طالبها يضحك أبكته، ويفرح بسلامته أهلكته، فندم على زلله إذ قدم على عمله، وبقي رهين خوفه ووجله، وود أن لو زيد ساعة في أجله، فما هو إلا أسير في حفرته، وحسير في سفرته، وهذه وإن كانت صفة من عنَّا نأى، فكذا نكون لو أنّ العاقل ارتأى:

سبيلك في الدنيا سبيل مسافر
ولا بد من زادٍ لكل مسافرِ
ولا بد للإنسان من حمل عدة
ولا سيما إن خاف سطوة قاهرِ
وطُرقك طُرْق ليس تسلك دائمًا
وفيها عقاب بَعْدُ صعب القناطرِ

أخبرنا المبارك بن علي، أنبأنا علي بن محمد بن العلاف، أنبأنا علي بن أحمد الحمامي، حدثنا جعفر الخوَّاص، حدثني إبراهيم بن نصر، قال حدثني إبراهيم بن بشار، قال: كنت يومًا مارًّا مع إبراهيم بن أدهم في صحراء، إذ أتينا على قبر مُسنَّم، فترحَّم عليه وبكى، فقال: قبر من هذا؟ فقال: هذا قبر حميد بن جابر، أمير هذه المدن، كان غريقًا في بحار هذه الدنيا، ثم أخرجه الله منها، لقد بلغني أنه سُرَّ ذات يوم بشيء من ملاهي دنياه ثم قام من مجلسه ونام مع من يخصه من أهله فرأى رجلًا واقفًا على رأسه بيده كتاب، فناوله إياه فقرأه فإذا فيه: تؤثرون فانيًا على باق، فلا تغتر بملكك وسلطانك وعبيدك وولدك، فإن الذي أنت فيه جسيم لولا أنه عديم، وهو ملك لولا أنّ بعده هلك، وهو فرح وسرور لولا أنه لهو وغرور، وهو يوم لو كان يوثق فيه بغد، فسارع إلى أمر الله؛ فإنه يقول: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾. فانتبه فزعًا مرعوبًا وقال: هذا تنبيه

من الله عز وجل وموعظة، فخرج من ملكه لا يعلم به أحد، وقصد هذا الجبل فتعبد فيه، فلما بلغني أمره قصدته فسألته فحدثني ببدء أمره، وحدثته ببدء أمري فما زلت أقصده حتى مات، وهذا قبره رحمه الله تعالى. أ. هـ.

فوائد :

١- قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (آل عمران : ٩٢) فيه بيان عظيم أثر الصدقة وأنّ المرء إذا تصدق بما يحب مخلصًا لله صار بارًّا. والبر يشمل فعل كل الطاعات وترك كل المخالفات، ففي ذلك تنبيهٌ على أنّ الصدقة من أعظم أسباب رزق الله عبده بالطاعات وتجنيبه المخالفات.

٢- من أعظم ما يعين العبد على الخير اطلاعه على هدي السلف ـ رحمهم الله ـ .

قال ابن القيم مبينًا فوائد اطلاع المرء على هدي السلف واهتمامه بكتب الزهد والرقائق: محبة القوم تحمل على تعرّف

منزلتهم، والعلم بها، وإن كانت النفوس متخلفة منقطعة عن اللحاق بهم، ففي معرفة حال القوم فوائد عديدة:

ـ منها: ألّا يزال المتخلف المسكين مزريًا على نفسه ذامًّا لها.

ـ ومنها: أنه لا يزال منكسر القلب بين يدي ربه تعالى ذليلًا له حقيرًا يشهد منازل السابقين وهو في زمرة المنقطعين، ويشهد بضائع التجار وهو في رفقة المحرومين.

ـ ومنها: أنه عساه أن تنهض همته يومًا إلى التشبث والتعلق بساقة القوم ولو من بعيد.

ـ ومنها: أنه لعلّه أن يصدق في الرغبة واللجأ إلى من بيده الخير كله أن يلحقه بالقوم ويهيئه لأعمالهم فيصادف ساعة إجابة لا يسأل الله عزَّ وجلَّ فيها شيئًا إلَّا أعطاه.

ـ ومنها: أنّ هذا العلم هو من أشرف علوم العبادة، وليس بعد علم التوحيد أشرف منه، وهو لا يناسب لذة النفوس الشريفة، ولا يناسب النفوس الدنيئة المهينة، فإذا رأى نفسه أنه قد حصل له شطر السعادة فليحرص على

الشطر الآخر؛ فإنّ السعادة في العلم بهذا الشأن والعمل به. فقد قطع نصف المسافة فهلا قطع باقيها فتفوز نفسه فوزًا عظيمًا؟!!

ـ ومنها: أنّ العلم بكل حالٍ خيرٌ من الجهل. نعم العالم المتصف به خيرٌ من العالم غير الموصوف به ولا القائم به، ولكن العالم بهذا الشأن خيرٌ من الجاهل به غير المتصف به لخلوه من الأمرين.

ـ ومنها: أنه إذا كان العلم بهذا الشأن همّه ومطلوبه، فلابد أن ينال منه بحسب استعداده ولو لحظة، ولو بارقة، ولو أنه يحدث نفسه بالنهضة إليه.

ـ ومنها: أنه لعله يجري منه على لسانه ما ينتفع به غيره بقصده أو بغير قصده، والله لا يضيع مثقال ذرة، فعسى أن يُرحم بذلك العامل. أهـ. وهو كلامٌ نفيس جدًّا.

ـ وها هي نبذة يسيرة من هدي بعض السلف تبين ما كانوا عليه من اجتهادٍ وصبرٍ على الطاعة، ويكفي أنه قد

رُوي عن غير واحدٍ من السلف أنّه لو قيل له تموت غدًا ما وجد على ما يفعله مزيدًا.

ـ كان أويس القرني إذا أمسى يقول: هذه ليلة الركوع فيركع حتى يصبح وكان يقول إذا أمسى: هذه ليلة السجود فيسجد حتى يصبح. وكان إذا أمسى تصدق بما في بيته من الفَضْل من الطعام والثياب ثم يقول: اللّٰهمّ من مات جوعًا فلا تؤاخذني به، ومن مات عريانًا فلا تؤاخذني به.

ـ وقال ثابت البناني: كابدت الصلاة عشرين سنة وتنعمت بها عشرين سنة.

ـ وقال: ما تركت في مسجد الجامع سارية إلا وقد ختمت القرءان عندها وبكيت عندها.

ـ وعن ابن شوذب قال: ربما مشيت مع ثابت البناني فلا يمر بمسجد إلا دخل فصلى فيه.

وكان إذا عدنا مريضًا بدأ بالمسجد الذي في بيت المريض فركع فيه ثم يأتي المريض.

ـ وقال ثابت: وما على أحدكم أن يذكر الله كل يوم ساعة فيربح يومه.

ـ وقال محمد بن ثابت البناني: ذهبت ألقن أبي وهو في الموت: لا إله إلا الله فقال: يا بني دعني فإني في وردي السادس أو السابع.

ـ وقال ثابت لحميد الطويل: هل بلغك يا أبا عبيد أن أحدًا يصلي في قبره إلا الأنبياء؟ قال: لا قال ثابت: اللّهمّ إن أذنت لأحد أن يصلي في قبره فَأْذنْ لثابت أن يصلي في قبره. وكان ثابت يصلي قائمًا حتى يتعب فإذا تعب جلس فيصلي وهو جالس. فلما مات قال أبو شيبان: أنا والله الذي لا إله إلا هو أدخلت ثابتًا البناني كنتُ ومعي حميد الطويل، فلما سوينا عليه اللبن سقطت لبنة، فإذا أنا به يصلي في قبره فقلت للذي معي: ألا ترى؟ قال: اسكت فلما سوينا عليه وفرغنا أتينا ابنته، فقلنا لها: ما كان عمل أبيك ثابت؟ فقالت: وما رأيتم؟ فأخبرناها فقالت: كان يقوم

الليل خمسين سنة فإذا كان السَّحر قال في دعائه: اللّٰهمّ إن كنت أعطيت أحدًا من خلقك الصلاة في قبره فأعطنيها، فما كان الله ليرد ذلك الدعاء.

ـ وقال أبو بكر العطار: حضرت الجنيد أبا القاسم عند الموت في جماعة من أصحابنا وكان قاعدًا يصلي ويثني رجله إذا أراد أن يسجد، فلم يزل كذلك حتى خرجت الروح من رجله، فثقلت عليه حركتها فمد رجليه وكانت رجلا أبى القاسم تورمتا، فرآها بعض أصدقائه ممّن حضر ذلك الوقت. فقال: ما هذا يا أبا القاسم؟ فقال الجنيد: هذه نعمُ الله، الله أكبر، فلما فرغ من صلاته قال له أبو محمد الجريري: يا أبا القاسم لو اضطجعت؟ فقال: يا أبا محمد هذا مِنَّة الله، الله أكبر، فلم يزل ذلك حاله حتى مات رحمه الله.

ـ وكان حسان يفتح باب حانوته فيضع الدواة وينشر حسابه ويرخي ستره ثم يصلي فإذا أحسَّ بإنسان قد جاء يُقبل على الحساب يريه أنه كان في الحساب.

ـ وقال مهدي بن ميمون: رأيت حسان بن أبي سنان في مرضه فقيل له: كيف تجدك؟ قال: بخير إن نجوت من النار فقيل له: فما تشتهي؟ قال: ليلة بعيدة ما بين الطرفين أحيي ما بين طرفيها بالصلاة.

ـ وقالت داية داود الطائي: يا أبا سليمان أما تشتهي الخبز؟ قال: يا داية بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية.

ـ وكان الربيع بن خثيم إذا سجد كأنه ثوب مطروح، فتجيء العصافير فتقع عليه.

ـ وكانت أم الربيع بن خثيم تنادي ابنها الربيع فتقول: يا بني يا ربيع ألا تنام؟ فيقول: يا أُمَّهْ مَن جنَّ عليه الليلُ وهو يخاف البيات حُقَّ له ألّا ينام فلما بلغ به الجهد ورأت ما يلقى من البكاء والسهر نادته، فقالت: يا بني لعلك قتلت قتيلًا فقال: نعم يا والدة قد قتلت قتيلًا قالت: ومَن هذا القتيل يا بني حتى يُتَحَمَّل إلى أهله فيَعْفُون. والله لو

يعلمون ما تلقى من البكاء والسهر بعدُ لقد رحموك، فيقول: يا والدة هي نفسي!

ـ وعن سعيد بن المسيب أنه قال: ما فاتتني الصلاة في الجماعة منذ أربعين سنة وما أذَّن المؤذن منذ ثلاثين سنة إلّا وأنا في المسجد.

ـ وقال سعيد بن المسيب: ما فاتتني التكبيرة الأولى منذ خمسين سنة وما نظرت في قفا رجل في الصلاة منذ خمسين سنة.

ـ وعن سعيد بن المسيب قال: ما دخل عليّ وقت صلاة إلا وقد أخذت أُهبتها، ولا دخل عليّ قضاء فرض إلا وأنا إليه مشتاق.

ـ وقال غياث بن واقد: طاف سفيان ذات ليلة فأكثر الطواف ثم صلى فأطال الصلاة ثم اضطجع فقلت: هذه ضجعته حتى يصبح فما كان إلا قليلًا حتى هبَّ من نومه ثم أخذ نحو الجبل الذي كان يأوي إليه فأصاب إبهام قدمه

حجر فدَمِيَت فاضطجع (مضطرًا) ثم قال: أفٌّ لها ما أكثر كدرها عجبًا لمن يحبها!

ـ وقال ابن وهب: رأيت الثوري في المسجد الحرام بعد المغرب صلى ثم سجد سجدة فلم يرفع رأسه حتى نودي بصلاة العشاء.

ـ وكان سفيان الثوري يصلي ثم يلتفت إلى الشباب فيقول: إذا لم تصلوا اليوم فمتى؟

ـ وقال يحيى بن يمان: رأيت سفيان الثوري يخرج يدور بالليل وينضح في عينيه الماء حتى يُذهب عنه النعاس.

ـ وقال حماد بن سلمة: ما أتينا سليمان التيمي في ساعة يطاع الله عزَّ وجلَّ فيها إلا وجدناه مطيعًا. إن كان في ساعة صلاة وجدناه مصليًا وإن لم تكن ساعة صلاة وجدناه متوضئًا أو عائدًا مريضًا أو مشيعًا لجنازة أو قاعدًا في المسجد، فكنا نرى أنه لا يُحسن يعصي الله عزَّ وجلَّ!

ـ وقال سليمان التيمي لأهله: هلموا حتى نُجزِّئ الليل فإن شئتم كفيتكم أوله وإن شئتم كفيتكم آخره.

ـ وقال الربيع بن سليمان: كان الشافعي قد جزأ الليل ثلاثة أجزاء: الثلث الأول يكتب والثلث الثاني يصلي والثلث الثالث ينام.

ـ وقال مالك بن دينار: لو استطعت ألّا أنام لم أنم مخافة أن ينزل العذاب وأنا نائم، ولو وجدت أعوانًا لفرقتهم ينادون في سائر الدنيا كلها: يا أيها الناس، النار النار.

ـ وقال: إن الأبرار تغلي قلوبهم بأعمال البر وإن الفجار تغلي قلوبهم بأعمال الفجور، والله يرى همومكم، فانظروا همومكم يرحمكم الله.

ـ وقيل لعمر بن هانئ: نرى لسانك لا يفتر من ذكر الله فكم تسبح كل يوم؟ قال: مائة ألف إِلَّا أن تخطئ الأصابع.

ـ وقال الجنيد: ما رأيت أعبد لله من سَرِي السَّقَطي، أتت عليه ثمانٍ وسبعون سنة ما رُئي مضطجعًا إلّا في علة الموت.

ـ وكان لمحمد بن سيرين سبعة أوراد يقرؤها بالليل فإذا فاته منها شيء قرأه من النهار.

ـ وكان ابن سيرين يصوم يومًا ويفطر يومًا، وكان الذي يفطر فيه يتغدى فلا يتعشى ثم يتسحر ويصبح صائمًا.

ـ وكان مسلم بن يسار إذا رؤي وهو يصلي كأنه ثوب ملقى.

ـ وقال سفيان الثوري: لو رأيت منصورًا يصلي لقلت: يموت الساعة.

ـ وكان منصور يصلي على سطح بيته فلما مات قال غلام لأمه: يا أمه أين الجِذْع الذي كان في سطح آل فلان، لست أراه!! قالت: يا بني ليس ذاك جذعًا ذاك منصور قد مات.

٣- هل يشرع عمل الطاعة طلبًا للسعادة؟

قد اختلفت الأقوال في هذه المسألة، فمنع البعض من ذلك وأجاز البعض ذلك. والصحيح التفضيل؛ فمن فعل الطاعات طلبًا للسعادة ليس إلّا بحيث إنه إذا فقد السعادة لم يطع فهذا مذمومٌ بلا شك؛ إذ قد جعل حظ نفسه هو غرضه من الطاعات وليس مرضاة الله. وأمّا من جعل همّه الأساسي هو إرضاء الله بالطاعة ودخول الجنة والنجاة من

النار ولكن يحرص مع ذلك على نيل السعادة من الطاعات وتزداد همّته بتحصيله لها وتقلّ بقلّتها، فهذا لا ينبغي أن نختلف في جوازه، لأنّ الله عزَّ وجلَّ ما وعدنا في كتابه وسنة نبيه ﷺ بالسعادة على الطاعات إلّا لشحذ هممنا وتشجيعنا على مزيدٍ من الطاعات ولو كان طلب السعادة من الطاعة لا يُشرع لكان الوعدُ بالسعادة عليها لا فائدة فيه، بل سببًا لوقوع الناس في المخالفة الشرعية، وهذا لا يقوله عاقل!!

قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (النحل: ٩٧). والحياة الطيبة هي السعادة وحلاوة الإيمان. وقال أيضًا: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ (طه: ١٢٣، ١٢٤).

وقال كذلك: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة: ٣٨). وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ

يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ (الأنعام : ٨٢).

وقال ﷺ: «ثلاثٌ مَنْ كُنّ فيه ذاق حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه ممّا سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلّا لله، وأن يكره أن يعود إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يُقذف في النار» (رواه الترمذي وصححه الألباني)، وقال ﷺ: «مَن أحبَّ أن يُبْسط له في رزقه وينسأ له في أجله، فليصل رحمه» (رواه الترمذي وصححه الألباني)، فدل على مشروعية صلة الرحم من أجل بسطة الرزق وطول العمر مع طلب الرضا من الله، فطلب حلاوة الإيمان بصلة الرحم أولى بالمشروعية؛ لأنّ تذوق حلاوة الإيمان يؤدي إلى مزيدٍ من الإخلاص والصدق في فعل الطاعات.

ـ وطلب ذلك لا ينافي الإخلاص لله؛ ولذا حث الشرع على الطاعات وجعل من أجرها نيل هذه الأغراض. وأمّا ما ورد الشرع بالتحذير من طلبه بفعل الطاعات كمدح الناس أو نيل المنزلة والمكانة عندهم أو المفاخرة والمباهاة

به، فهذا كله لا يُشرع. وقد سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل ليُرى مكانه. والرجل يقاتل حميةً أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال: «**مَنْ قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**» (رواه الترمذي وصححه الألباني) وقال ﷺ: «**مَنْ طلب العلم ليجاري به العلماء أو ليماري به السفهاء ويصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار**» (رواه الترمذي وصححه الألباني). وقال ﷺ: «**مَنْ تعلَّم علمًا ممّا يُبتغَى به وجه الله تعالى لا يتعلمه إلّا ليصيب به عرضًا من الدنيا لم يجد عَرفَ الجنة يوم القيامة (يعني ريحها)**» (رواه أبو داود وصححه الألباني).

٤- للبكاء من خشية الله فضلٌ عظيمٌ؛ قال ﷺ: «**عينان لا تمسهما النار أبدًا: عين بكت من خشية الله، وعينٌ باتت تحرس في سبيل الله**» (رواه الترمذي وصححه الألباني).

وروى ابن أبي الدنيا عن شَهرِ بن حَوْشَب: لو أنّ عبدًا بكى في ملأ من الناس لرُحموا ببكائه.

وعن مالك بن دينار: بلغني أنّ العبد لا يزال يبكي حتى يرحمه سيده فيعتقه من النار.

وعن كعب: بلغني أنّ من بكى خوفاً من ذنبٍ غفر له، ومن بكى اشتياقاً إلى الله أباحه النظر إليه ـ تبارك وتعالى ـ يراه متى شاء.

وعن عطية العوفي: بلغني أنه من بكى على خطيئته مُحيت عنه.

وعن أبي حازم: بلغنا أنّ البكاء من خشية الله مفتاح لرحمته.

وعن الحسن: بلغنا أنّ الباكي من خشية الله مرحومٌ يوم القيامة.

وعن فرقد: بلغنا أنّ البكّائين هم أول من تنزل عليهم الرحمة إذا نزلت.

ـ اعلم أنّ البكاء من خشية الله نوعان:

أ- أن يتأثر قلب العبد ويبكي قلبه دون عينه ولكن لو شاء أن يُبكي عينه لأبكاها. وهذا محمودٌ وهو ما ورد فيه

الأمر بالتباكي لمن لم يجد البكاء. وأمّا تباكي العين مع قسوة القلب وغفلته فلا يدخل في ذلك.

ب- أن يتأثر القلب ويبكي القلب ويجد العبد أنّ عينه قد ذرفت دموعها فجأةً ورغمًا عنه، وهذا أعلى أنواع البكاء من خشية الله وهو ما قال عنه سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لو أتى البكاء الذي هو لله مرةً في العام لكان كثيرًا».

وأمّا النوع الأول فكثيرًا ما يأتي الصالحين، وربما كان الاكتفاء في النوع الأول ببكاء القلب دون بكاء العين أفضل؛ لأنّ المرء قد لا يستطيع أن يُبكي عينه مخلصًا صادقًا دون رياءٍ ولا سمعةٍ.